

ملابسنا

في كتب اللغة

بقلم مصطفى السقا

المحرر بمجمع اللغة العربية الملكية

من القواعد التي وضعها مجمع اللغة العربية الملكي للعمل بها عند وضع الألفاظ بازاء المعاني المستحدثة أن يبدأ بالبحث عن الألفاظ العربية الفصيحة ، التي استعملها القدماء في أغراض تشبه أغراضنا في العصر الحاضر .

وقد خطر لي أن أدرس باب الملابس في المعاجم العربية وكتب فقه اللغة ، لعل أجد فيها من فصيح الألفاظ ما يسد بعض حاجتنا في هذا الباب ، فقد استأثرت اللغات الأجنبية بالتعبير عن كثير من شؤون حياتنا ، وانقطعت الصلة أو كادت بين أسماء ملابسنا القديمة وملابسنا الحاضرة ، فإذا عرض لنا من أسماء الملابس القديمة شيء فيما نقرأ من كتب الأدب أو اللغة لم نفهمه ، وكأنا أمام رسم دارس من رسوم الأولين : نحاول حل رموزه ، والكشف عن الغازه .

قد يكون من الحق أن ملابسنا الحاضرة تختلف كثيرا عن ملابس العرب في الجاهلة والإسلام ، لأن كثيرا من أزيائنا مستعار من المدنية الغربية الحديثة ، فليس من العجيب إذا أن تكون الكثرة من أسماء الملابس أجنبية كسمياتها .

غير أننا لا نزال نجد في كتب العرب جملة من أسماء الملابس تشبه

مسمياتها بعض ما نلبسه في هذا العصر مسمى بغير اسمه العربي ، مع فروق يسيرة اقتضتها أحوال الزمان والمكان .

فإذا استطعنا أن نتجاوز عن الفروق التي لا تمس الجوهر استطعنا أن نحكي ألفاظا عربية تغني غناء بعض الألفاظ الأعجمية ، التي نستعملها في غير ضرورة ماسة .

وإني أعرض في (صحيفة دار العلوم) ما وجدته من أسماء الملابس التي يمكن وضعها لبعض ما نلبس ، راجيا من محبي البحث اللغوي أن يتبعوها بالنقد والتمحيص ، برا بالعربية ، وضناها أن ترمى بالعقم ، وفيها من غوالي الكلم ، ونفائس الدُّرر ما يزرى بالياقوت والجوهر .

ما يوضع على الرأس

الْقَلَنْسُوءَةُ : الطربوش .

الكُمَّة : طربوش العمة .

في اللسان — الْقَلَنْسُوءَةُ وَالْقَلَنْسِيَّةُ ... من ملابس الرأس ، معروف .

وفي اللسان أيضا — الكُمَّة : القلنسوة المدورة ، لأنها تغطي الرأس .

وفي الحديث : « كانت يكام أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بَطُحًا ،

(وفي رواية أكمة) . قال : هما جمع كثرة وقلة للكُمَّة : القلنسوة . يعني أنها كانت منبطحة غير منتصبة .

وفي الأساس — واعتم على الكُمَّة ، وهي هذه القلنسوة اللاطئة

بالرأس ، على مقداره . وتقول : لا تحسن العُمة ، إلا على الكُمَّة .

هذه النصوص أوضح ما في المعاجم العربية في تفسير القلنسوة

والكُمَّة . وهي في الحقيقة قاصرة لا تصور المعنى ، بالدقة التي يطلبها هذا

العصر ، وقد نسي أصحاب المعاجم أن العُرف الذي يحيلون عليه في تعريف

الأشياء الطبيعية حينما يقولون : (نبات معروف ؛ أو حيوان معروف) لا ينبغي إلا حالة عليه في مثل الملابس ، لأنها أمور صناعية تختلف باختلاف البيئات والعصور .

بعد هذا أقول : أنكتفي من المعاجم بأن القلنسوة والكُمة من ملابس الرأس ، مع ملاحظة ما بينهما من فرق . فتضع القلنسوة في استعمالنا اللغوي بدلا من (الطربوش) والكُمة بدلا من (طربوش العمة) . ونغض النظر عن المادة واللون والهيئة الخاصة ؛ أم نقول إن العرب وضعت كلا من القلنسوة والكُمة اسما لمسمى خاص ، ولا يجوز أن يجعل اسم الشيء علما على آخر لما يتبع إخراج الألفاظ عن معانيها الأصلية من فساد في اللغة ، وخفاء في الاستعمال ؟

الذي أحثاره التوسع ، وحمل الأمر على المجاز ما وسعنا المجاز بعلاقاته وقرائنه ، وحسبنا هنا أن كلا من القلنسوة والكُمة من ملابس الرأس ، وأن الأولى منتصبية (على هيئة الطربوش) والأخرى منبطحة لاطئة بالرأس . وفي هذا التشابه في الغرض والصنعة ما يحملنا على ألا نتردد في إثارة اللفظين العريين على اللفظين الدخيلين .

على أن ما يمتاز به اللفظان العريان من وجود صيغ أفعال من مادتهما ، ووجود مصادر ، وجوع للقلة والكثرة أحيانا ، يجعلهما أصلح للبقاء ، وأحق بالاثار ، وأحسن تصرفا في أساليب الكلام .

ما يوضع على الجسم

نرى قبل تسمية أنواع الملابس التي تلبس على الجسم أن نتكلم على طبقاتها ، وقد قسمها القدماء إلى طبقتين ، شعار ودثار ، وقد يكتفي أصحاب المعاجم في شرح الكلمة بأن يقولوا : هي شعار ، أو دثار ، أو نحو ذلك .

الشعار

فالشعار : اسم لكل ثوب يلي جسم الإنسان ، سواء أكان من القطن أم من الصوف أم من الحرير أم من غيرها ؛ وتختلف هيئة تفصيله كما تختلف مادته باختلاف أحوال الناس في الغنى والفقر ، وباختلاف الأجواء وطبائع البلاد ، وباختلاف الأشخاص ذكرانا وإناثا . وقد يفهم كل هذا من إطلاق اللغويين لفظ الشعار من كل قيد سوى ملامسة جسم اللابس . قال صاحب اللسان : الشعار : ما ولي شعر جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب ، والجمع أشعرة وشعر . وفي حديث الأنصار : « أتمم الشعار ، والناس الدثار » أى أتمم الخاصة والبطانة . اهـ

الدثار

والدثار : هو الطبقة الثانية تلى الشعار ؛ وقد يكون ثوبا واحدا أو أكثر . قال في المصباح : الدثار ما يتدثر به الإنسان ، وهو ما يليقه عليه من كساء أو من غيره ، وتدثر بالدثار : تلفف به . وفي القاموس : الدثار (بالكسر) ما فوق الشعار من الثياب .

الملاحف

واللغويون يسمون الملابس التي يتغطى بها اللابس من نحو الرداء والجبّة والملاءة بالملاحف ، كما يطلقونها على الأغذية التي يتدثر بها في النوم . قال صاحب اللسان : اللحاف والملاحف والملاحفة : اللباس فوق سائر اللباس من دثار البرد ونحوه ، وكل شيء تغطيت به فقد التحفت به . اهـ . وجمع اللحاف : لحُف . وجمع الملاحف والملاحفة : ملاحف .

المقطعات وغيرها

وجدير بي هنا أن أشير إلى أن الثياب التي تلبس نوعان ، فمنها : ما يُقَطَّع ويُفَصَّل على قدر الجسم ، ومنها ما لا يفصل . قال صاحب اللسان في مادة (قطع) :

المقطع من الثياب : كل ما يفصل ويخاط ، من قميص وجباب وسراويلات وغيرها . وما لا يقطع منها كالأردية والأزُر والمطارف والرياط التي لم تقطع ، وإنما يتعطف بها مرة ، ويتلفع أخرى . وهذا الفرق الذي ذكره صاحب اللسان وشارح القاموس ينفعنا كثيراً حين نقرأ الباب الذي عقده ابن سيده في الجزء الرابع من المخصص بعنوان (الملاحف) فإنه لم يذكر فيه من الملاحف إلا ما لم يُفَصَّل ولم يُخَطَّ ، كالأردية والأزُر والرياط والمعاطف .

وعلى ذكر المعاطف أحب أن أنبه على شيء التبس على بعض الناس فهمه ، فقد شاعت كلمة المعطف بيننا اسماً لذلك الملحف الذي يسميه الناس (البالطو) وسمته إحدى لجان المجمع (المِدرع) فليس من شك أن (البالطو) مما يفصل ويخاط ، ولكن العِطاف أو المعطف الذي ذكره ابن سيده في المخصص : رداء ، أي ثوب غير مخيط ولا مُفَصَّل يُرَدَدَى على المنكبين والكتفين ومُجْتَمَع العنق ، ثم يعطف طرفه ، أي يثنى . قال الراغب في المفردات : المعطف يقال في الشيء إذا ثُنِيَ أَحْطَرَفِيهِ إِلَى الْآخِرِ ، كعطف النصف والوسادة والحبل ، ومنه قيل للرداء المثنى عِطاف . فما أحقنا أن نعدل عن كلمة معطف (للبالطو) لأنها وضعت في غير موضعها .

أنواع من الملا بس

المجسد . الغطاية . الغلالة

في تاج العروس — المجسد (كنبر) : ثوب يلي المجسد ، أى جسد المرأة فتعرق فيه . وقال ابن الأعرابي : « ولا تخرجن إلى المساجد في المجاسد » هو جمع مجسد ، وهو القميص الذى يلي البدن . اهـ
ومثل المجسد الغطاية والغلالة . قال ابن سيده فى المخصص : الغطاية : ما تغطت به المرأة من حشو الثياب تحت ثيابها . والغلالة نحوها ، وهما أيضاً الشعر . اهـ

وفى الأساس — وبرزت فلانة فى غلالة ، وبرزن فى غلائل ، وهى شعار يلبس تحت الثوب للبدن خاصة . اهـ
هذه ألفاظ عربية فصيحة عذبة هجرناها وآثرنا عليها ألفاظاً دخيلة هى (الفائلة والكاشكورسيه) ونحوهما من الألفاظ التى يتحدث بها النساء حينما يردن أنواع الأشعة التى تلى أجسامهن .
قد يقول قائل : إن لهذه الألفاظ الدخيلة دلالة خاصة ، كالدلالة على النسيج ذى الهدب ، أو الذى يمتد إذا مد ، وكالدلالة على هيئة التفصيل من حيث طول القميص أو قصره ، ووجود الأكام أو عدمها ، ونحو ذلك مما لم يلاحظ فى ألفاظ المجسد والغطاية والغلالة .

وجوابنا عن هذا أن الصفة الأساسية للشعار أنه الثوب الذى يلي الجسد من أية مادة ، وعلى أية هيئة . وهذا المعنى ملحوظ فى الألفاظ العربية . فالمجسد الذى يلي الجسد ، والغطاية التى تغطيه ، والغلالة التى تستغلل فيها ، أى يدخل . وهذه المعانى أثبت على الزمان ، وأبقى من هيئة التفصيل ، ونوع النسيج ، ورقته أو صفاقة ، مما يختلف باختلاف أحوال الناس وبيئاتهم .

وقد يفهم من نصوص المعاجم السابقة أن الألفاظ الثلاثة لشعار النساء خاصة، وهذا صحيح في المجسد والغطاية، أما الغلالة فالذي يظهر أنه عام في شعار الرجال والنساء. قال صاحب اللسان: الغلالة: شعار يلبس تحت الثوب، لأنه يتغلل فيها أى يُدخل. وفي التهذيب: الغلالة: الثوب الذى يلبس تحت الثياب. اهـ

فصاحب اللسان وصاحب التهذيب يطلقان القول فى الغلالة، ولا يخصانها بالنساء، ولكن ابن سيده ذكرها فى الجزء الرابع من المخصص فى الصفحة ٣٨ وعدها من ملابس النساء وثيابهن. وقد يستأنس لجعل الغلالة من ملابس الذكور بقول الشاعر:

لا تعجبوا من بلى غلالته قد زرأ زرارته على القمر

فإن ضمير صاحب الغلالة مذكر، هذا إذا لم يرد به الشاعر معنى الحبيب ونحوه.

بقى فى تفسير الغلالة قول الراغب الأصفهاني فى المفردات فى غريب القرآن وهو:

الغلالة: ما يلبس بين الثوبين، فالشعار لما يلبس تحت الثوب، والدثار لما يلبس فوقه، والغلالة لما يلبس بينهما. وهذا أغرب ما رأيت فى تفسير الغلالة

القميص

جمعه أقمصه وقمصان وقمص. وهو مذكر إلا إذا قصد به الدرع الحديدية.

وكتب اللغة تفاوت فى تحديد معنى القميص، وأكثرها يحيل على العُرف، فيقول صاحب اللسان: «القميص الذى يلبس معروف، مذكر». ويزيد عليه صاحب القاموس فيقول: «القميص وقد يؤنث

م - (معروف) ولا يكون إلا من قطن ، وأما من الصوف فلا . اهـ
وزاد الشارح بعد (من قطن) أو كتان .

والمعروف أن القميص من الشعار ، ولم يصرح بذلك من أصحاب
المعاجم القديمة غير شارح القاموس إذ يقول : « وذكر الشيخ ابن الجزرى
وغيره أن القميص ثوب مخيط بكمين غير مُفَرَّج ، يلبس تحت الثياب
قال شيخنا : وقال قوم : ولعله مأخوذ من الجلدة التى هى غلاف القلب ،
وقيل مأخوذ من التقمص ، وهو التقلب . »

وقال ابن سيده : « قميص القلب : شحمه ، أراه على التشبيه . » اهـ .
وصاحب المنجد من المتأخرين يقول : « القميص ما يُلبس على
الجلد . » اهـ

ولفظ القميص فى العربية هو عينه فى بعض اللغات الأوربية
(Chemise) ويدل على نحو ما يدل عليه اللفظ العربى ، ولذلك زعم
بعض الباحثين فى الألفاظ أن اللفظ العربى معرب عن اللاتينية (انظر
كتاب تفسير الألفاظ الدخيلة ، للقس طوييا العيسى الحلبي اللبناني) .
ولكن المعجمات العربية لم تنص أن اللفظ مُعَرَّب ، ولعله مما تنوسى
تعريبه ، لقدمه فى اللغة .

هذا ، والقميص فى العربية من ملابس الرجال والنساء . وفى القرآن
العزيز : (إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ) . وقال الشاعر :
أبت الروادف والثدى لقمصها مس البطون وأن تمس ظهورا
وخلاصة هذا البحث أن القميص هو الكلمة الرابعة التى تدل على
الشعار فى العربية ، وإذا سلمنا أن الألفاظ الثلاثة السابقة خاصة بشعار
النساء ، فالقميص لشعار الرجال والنساء جميعا ، فلنستعمله بدلا من كلمة
(فائنة) للرجال والنساء .

الإِتْب - المِثْبَة

ذكر صاحب اللسان وصاحب القاموس وشارحه في تفسير الإِتْب والمِثْبَة أقوالا كثيرة، نختار منها التفسيرين الآتين:

١ - « الإِتْب - من الثياب - ما قَصُرَ فَصَفُ الساق . »

٢ - « الإِتْب : قميص بغير كمين . »

وإذا لم نشغل أنفسنا بالأقوال الأخرى التي نقلت في تفسير الإِتْب، جاز لنا أن نجتمع بين هذين القواين وأن نطلق الإِتْب أو المِثْبَة على ذلك الثوب الذي ينصُفُ الساق ولا كم له، وهو الذي يسميه سيدات العصر (قميص النهار) وهو ما يلبس تحت الدرع.

الدرع

في المخصص - درع المرأة: قميصها، مذكر، والجمع أدراع. اهـ.
وفي اللسان - درع المرأة: قميصها، وهو أيضا الثوب الصغير تلبسه الجارية الصغيرة في بيتها، وكلاهما مذكر، وقد يؤنثان. وقال اللحياني:
درع المرأة مذكر لا غير، والجمع أدراع. وفي التهذيب - الدرع: ثوب تجوب المرأة وسطه، وتجعل له يدين، وتخيظ فرجيه. ودُرِعت الصبية، إذا ألبست الدرع. اهـ.

وفي القاموس - الدرع من المرأة: قميصها، مذكر، والجمع أدراع. اهـ.
هذه النصوص تكاد تتفق على أن درع المرأة قميص، لولا ما نقله اللسان عن التهذيب من أن الدرع ثوب... الخ.

وأنا أميل إلى أن الدرع ليس قميصا، بل هو الثوب الذي يلبس فوق القميص، وهو الذي نسميه بلسان العامة (جلباب البيت). ويساعدنا على هذا عبارة التهذيب السابقة، وقول آخر نقله ابن سيده في المخصص عن

ابن السكيت في تفسير معنى السَّبْجَة إذ يقول : السَّبْجَة : دِرْع عرض بدنه إلى عظمة الساعد ، يخاط جانباه ، وله كُمِيم صغير طوله شبر ، يلبسه ربّات البيوت ، فأما الجوارى فيلبسن القُمُص .

فهذا القول صريح في أن الدرع ليس من القمص ، وإنما هو شيء آخر تلبسه ربّات البيوت ، وقد يفهم من قوله (يلبسه ربّات البيوت) أنه موصوف بزيادة في السعة والطول يمتاز بها عن القميص ، ليناسب ربّات البيوت في احتشامهن وأسنانهن .

وأصرّح من ذلك في أن الدرع غير القميص قول أبي منصور الثعالبي في الباب الثالث والعشرين من كتاب فقه اللغة :

الآتِب والقرقر^(١) والقرقل ، والصدار والمجول ، والشَّوْزَر : قمص متقاربة الكيفية في القصر واللطافة وعدم الأكام ، يلبسها النساء تحت دروعهن^(٢) ، وربما اقتصر عليها في أوقات الخلوة ، وعند التبذل . اهـ .
فهذا القول غاية في الصراحة في أن الدرع يلبس فوق القميص ، وليس هو القميص ، ونحن نستحسن جدا أن نطلق لفظ الدرع على (جلباب المنزل) أي ما يسمى : (Robe)

السَّبْجَة - السَّبْجِيَّة

وأحب ألا أترك هذه الفرصة تمر دون أن أحيي لفظا عربيا هو (السَّبْجَة أو السَّبْجِيَّة) التي سبق شرحها في الكلام على الدرع ، فتمد

(١) نقلنا هذا النص من كتاب فقه اللغة بحروفه ، وصاحب تاج العروس يقول في تفسير (القرقل) ما يأتي : وهو الذي تسميه العامة (قرقر) . وفي التهذيب : ونساء أهل العراق يقولون (قرقر) وهو خطأ .

(٢) خالف أبو منصور جمهور اللغويين الذين جمعوا درع المرأة على (أدراع) ولم يجمعوه على دروع .

تجاهلنا هذا اللفظ ، وأحيانا بدلا منه لفظا دخيلا كثيرا ما يرد على السنة سيدات العصر ، وهو (Robe Japanese) .

المجول

المخصص — المجول : درع خفيف تجول فيه الجارية . اه
الأساس — وبرزت في مجولها ، وهو ثوب تلبسه الفتاة قبل التخذير ، تجول فيه . اه

اللسان — المجول ثوب صغير تجول فيه الجارية . غيره — والمجول : ثوب يثنى ويخاط من أحد شقيه ، ويجعل له جيب ، تجول فيه المرأة ، وقيل : المجول للصديعة ، والدرع للمرأة .

القاموس — المجول (كمنبر) : ثوب للنساء أو للصغيرة .
تقول هذه النصوص : إن (المجول) ثوب تلبسه الفتاة في البيت وفي خارج البيت قبل أن تقصر في الخدر . أو هو ثوب تجول فيه المرأة في البيت . والمراد أنه درع تلبسه ربة البيت تجول فيه .
وأنا أستحسن قول من قال (المجول للصديعة ، والدرع للمرأة) . فإذا ضممتنا هذا القول إلى قول الزمخشري السابق في الأساس ، جاز أن نطلق كلمة المجول على (الفستان) الذي تلبسه فتيات المدارس مثلاً ومن في أعمارهن .

المعرض

في القاموس — المعرض (كمنبر) : ثوب تجلى فيه الجارية .
وفي المصباح — المعرض (وزان مقود) : ثوب تجلى فيه الجوارى ليلة العرس . وهو آخر الملابس عندهم ، أو من أفرها .
وقد وضعت إحدى لجان الجمع كلمة المعرض (لفستان العروس) ولكن قواعد المجاز لا تأبى إطلاق هذا اللفظ على كل ثوب فاخر تلبسه المرأة أو الفتاة في المنزل عند الزيارات مثلاً ، وفي المجتمعات الخاصة والعامة ، وهو ما يطلق عليه اسم (الفستان) .

الجلباب

كثيرا ما نسمع من الشبان والفتيات الأنيقات كلمة فرنسية هي (Robe de Chambre) يعنون بها ذلك الثوب الذى تجلب به الثياب فى المنزل ؛ وعندنا فى العربية مرادف عربى فصيح لهذا اللفظ الفرنسى ، وهو (الجلباب) فاسمع إلى ما يقوله اللغويون فى معناه :

المخصص — عن صاحب العين - الجلباب : ثوب أوسع من الخمار دون الرداء ، تغطى به المرأة ظهرها وصدرها . اهـ .

اللسان — وقيل هو ثوب واسع دون المملحة (الملاءة) تلبسه المرأة ، وقيل هو المملحة ، وقيل هو ما تغطى به المرأة الثياب من فوق كالمملحة . اهـ .

القاموس — الجلباب (كسرداب وسنار) : القميص ، أو ثوب واسع للمرأة دون المملحة تغطى به ثيابها من فوق كالمملحة ، أو هو الخمار . وتتلخص أقوال اللغويين فى تفسير الجلباب فى أنه يطلق على الخمار والقميص ، والمملحة ، وثوب واسع للمرأة دون المملحة تغطى به ثيابها من فوق كالمملحة .

وهذا المعنى الأخير هو الذى يناسب ما نريده من هذا البحث ، فهو منطبق على معنى (Robe de Chambre) ، فهل يتاح لهذا اللفظ الواحد الخفيف أن يتداول على ألسنة الخاصة والمتقفين من شباننا وشواننا ، ليدلوا على حب لغتهم وغناها ؟

بقى أن النصوص السابقة تفيد أن الجلباب من ملابس النساء ، فهل يجوز إطلاقه على ما يلبس الرجل من هذا النوع ؟ وجوابنا عن هذا أن علاقة الإطلاق والتقييد فى المجاز تساعد على تعميم اللفظ فيما يلبسه النساء والرجال ، ولا ضير ؟